



أ.نبيل بوالسليو

النقد العربي القديم في ضوء المنجز الغربي - رؤية تواصلية -

في حدود الرؤية التي نسعى إلى طرحها من خلال هذه الدراسة، يمكن بدء التسليم بأنه لا يمكن لأي منجز نقدي قديم أن يصوغ منجزا نقديا معاصرا، بالنظر إلى أن المنجز المعاصر في شكله الغربي لديه كما هو معروف مضانه الفلسفية وركائزه المعرفية.

غير أن المنجز النقدي العربي رغم ذلك كان لديه من اتساع الأفق ومن التنوع الخلاق بحيث أمكنه أن يعالج وبكفاءة عالية أغلب القضايا النقدية التي انبثقت عن المناهج المعاصرة؛ الأمر الذي يحتم التواصل مع التراث النقدي العربي تواصلا جديلا يمكن من تأصيل المنهج باعتبار ذلك ضرورة إجرائية. فالمصطلح الغربي والمرجعيات الغربية لا يمكن أن تطبق بحذافيرها على لغة تمتلك هوية مختلفة وتستند إلى أصول معرفية لها طابعها الخاص.

غير أن التواصل النقدي يظل مهمة معقدة لا يزال النقد العربي المعاصر عاجزا على أدائها بالكيفية المبتغاة، بالنظر إلى أن حلقة الوصل المشكلة ضمن الراهنية النقدية لم تستطع أن تستوعب التراث البلاغي النقدي بالشكل الواعي الراسخ، كما لم تستطع استيعاب النظرية النقدية الغربية المعاصرة وما انبثق عنها من سيل جارف على مستوى الإجراء وعلى مستوى المصطلح. هذا السيل الذي أدى إلى اليأس في ملاحقة المنجز الغربي: "و لا ريب في أن شأن هذه المعادلة التاريخية المؤسفة أن تفقد الناقد العربي المعاصر إلى حالة هي أقرب إلى اليأس

من إمكانية الارتقاء بما عندنا لبلوغ ما عند الآخر، بكل ما ينطوي عليه هذا الإحساس من إيمان بالعجز والقصور والدونية، وبما يمكن أن يفضي ببعض هؤلاء النقاد إلى الانقياد السريع لإنجاز الآخر والانضواء تحت آلية بنائه المعرفي ومعطياته الثقافية والنقدية¹. ويبقى التواصل الواعي والجدلي مجرد رغبة لن تتحقق إلا بتفعيل التراث النقدي العربي القديم، واندماج النقد العربي المعاصر في عملية معقدة لا تقف عند حدود النقل والتعريب وإنما تتعدى ذلك إلى الإسهام في وضع النظرية وإنتاج المصطلح.

و إذا كنا في هذا الإطار نتكلم بشكل واضح عن إرادة التواصل، فالعملية لا يمكن أن تكون اعتباطية أو قفزة في فراغ، فهناك عناصر لا يمكن التواصل بدونها من منظور الواقع الذي نعيشه. فمن جهة يوجد تراث نقدي عربي على جانب كبير من الثراء، وهو يشكل قاعدة أساسية لأي منطلق يهدف إلى هذه الغاية، ومن جهة يوجد سيل جارف للنظرية النقدية المعاصرة بمرجعياتها المعاصرة، وهناك حلقة الوصل ممثلة في النقد العربي المعاصر التي يمكن أن تحقق مثل هذا التواصل، لكن هذه الحلقة تظل لحد الآن على جانب من الهشاشة؛ بحيث تعجز في غالب الأحيان على دمج العلاقة بغية تأصيل النظرية النقدية العربية. مع العلم أن مثل هذا التأصيل عملية أبعد ما تكون عن كونها اختيارية، بل عملية إجبارية، خاصة إذا ما علمنا بأن المناهج الغربية وإن ادعت في كثير من الأحيان العلمية، فهي لا تخلو من مرجعيات أيديولوجية: "فما يجمع بين هذه المذاهب هو كونها وليدة حضارة أجنبية؛ إذ هي عصاره ما أنتجته أمم شرقية وغربية، غريبة عن تاريخنا وحضارتنا في مسيرتها الطويلة عبر تفاعلات عدة، ومهما يقال عن علمية بعض هذه المناهج، وعن عدم اتسامها ببناء على ذلك بطابع حضاري خاص، فإنها تخفي أبعادا أيديولوجية، لا يمكن إنكارها"².

و نرى بأن أهم عوامل هذا العجز مؤداه عدم القدرة على استيعاب التراث وبالمقابل انبهار مفرط بالحدثة الغربية مما قاد إلى احتقار المنجز النقدي العربي أو إهماله، وهذا يعتبر من أبرز مظاهر التواصل السلبي مع التراث.

أولا/ سلبية التواصل:

تتطبع هذه الرؤية السلبية من خلال موقف واع ذي أبعاد أيديولوجية وتستهدف تهميش التراث ككل وإبعاده، أو موقف غير واع بضرورة تمثل التراث النقدي انطلاقا من عجز أو ضيق أفق. وهكذا يرسخ لدى صنف من الحداثيين بأن الحدثة لا يمكن أن تتحقق على المستوى النقدي وحتى على المستوى المعرفي بشكل أوسع إلا بالقطيعة مع التراث. ولهؤلاء أحيانا مبرراتهم التي تتبني على أساس أن النقد العربي لم يستطع عبر مراحل المختلفة تطوير نظرية محددة المعالم. ثم أن هذا النقد شهد انقطاعات طويلة دامت قرونا مما جعله متخلفا تماما على مواكبة التحولات الكبيرة التي حدثت في العالم الغربي.

و نسي هؤلاء الحداثيون في مقابل ذلك عجزهم على مواكبة صيرورة النظرية النقدية المعاصرة؛ إذ انصب أغلب جهدهم على النقل والترجمة دون أن يحققوا أي إنجاز يؤشر لإضافة أو إسهام حقيقيين. خاصة إذا علمنا أن هؤلاء الحداثيين العرب وإن حاولوا في حدود مؤهلاتهم تطبيق المناهج الغربية وحتى استثمار التراث النقدي أحيانا إلا أن الوسيلة في الغالب كانت تعوزهم، وأظهر دليل على ذلك عدم تمكنهم التام من الدراسات اللغوية وحتى الألسنية، هذه الدراسات التي أضحت من المرجعيات الأساسية للمقاربات السيميائية والأسلوبية. وقد يصدق هذا الحكم بنسب متفاوتة على كل من البنيويين والتفكيكيين والأسلوبيين من النقاد العرب المعاصرين.

و لا نظن أن عملية التواصل النقدي ستتم بالكفاءة المرتجاة ضمن هذه المرجعيات والشروط. لكن مثل هذه الإخفاقات لديها ما يبررها بالنظر إلى سلسلة الانقطاعات التي ميزت تعامل النقاد العرب مع تراثهم النقدي، هذه الانقطاعات التي شهدت عصر الضعف ثم استمرت مع النهضة العربية الحديثة. ولما أهل القرن العشرون خضع العقل العربي لصدمة الحداثة الغربية وما انجر عنها من مناهج ونظريات فتعامل معها من منطلق التبعية والانبهار لا من منطلق التفاعل الخلاق.

و الواقع أن الإشكال المنهجي ظل مطروحا حتى على مستوى النقد الغربي؛ إذ بدت تلك المناهج كأنها ردود فعل على بعضها البعض، فما أن يظهر منهج إلا ويسارع إلى تقويض المناهج التي سبقتها، فالبنويية لم تعترف بالمناهج السياقية التي رسخها النقد الغربي منذ القرن التاسع عشر. والتفكيكية اعتبرت نفسها تحولا جذريا على مستوى النظرية والمنهج والتصور؛ ونتيجة هذه الرؤية المنفصلة التي طبعت المناهج الغربية انفصم النقد العربي المعاصر بإزائها. وتجلى ذلك عن طريق الخلط المنهجي من ناحية أو التوقع ضمن منهج واحد من ناحية أخرى، وكأن هذا المنهج أو ذاك قادر لوحده على التعامل مع الظاهرة الأدبية بكل أوضاعها ومجالات اشتغالها المختلفة.

و في مقابل هذه الهشاشة لتواصل النقد المعاصر مع المنجز النقدي الغربي ظلت هناك هشاشة بل علاقة أحيانا مرببة في التعامل مع المنجز النقدي العربي القديم، ولعل هذه الهشاشة هي نتاج لسلسلة من التراكمات المعرفية المتعاطلة مع التراث النقدي في شكله الانتقائي، الذي يعمل على إسقاط النظرية النقدية الغربية آليا على النظرية العربية كما شرعها عبد القادر الجرجاني أو غيره.

و يبدو الشرخ أوسع عندما يكون مدار اهتمام الحداثيين العرب - كحلقة وصل - المنجز النقدي الغربي على حساب المنجز النقدي العربي القديم. وبهذا الشكل يتضخم شكل المنجز الغربي ويُضفى عليه في الغالب جانب من القدسية واليقينية في كل ما توصل إليه ، فتقطع حلقة الوصل وتتحرف وتتساق باتجاه واحد ولا يغدو اتجاه التأصيل إلا عربة يقودها الحصان الغربي إن لم يتخل عنها. والغريب أنه في الوقت الذي ينادي فيه الحداثيون العرب بالقطيعة مع الماضي، يصير كبار

الحدثين في الغرب - ونذكر منهم جاك ديريدا على وجه التحديد - على أن الحادثة ما هي إلا انبثاق للقديم ومعاودة ظهوره من خلال ما هو حديث، يقول: "أعتقد أن ما يحدث في عالمنا الحاضر والذي يصدمنا بحدته إنما هو في الحقيقة اتصال شيء قديم جدا كان خفيا. لذا فإن الجديد ليس الذي يحدث للمرة الأولى، بل هو البعد القديم جدا يعاود الظهور في الجديد جدا"ⁱⁱⁱ.

إن بتر الصلة مع التراث النقدي العربي تحت شعار ودعوى أن الحادثة لا تتم إلا بالقطيعة مع الماضي، ليس لديه ما يبرره إلا كونه قفزة حاول الحداثيون أن يقوموا بها ولكن في فراغ. وإذا كان منزع هؤلاء إيديولوجي قبل أي اعتبار، فإن هناك نزعة أخرى ميزت بعض الحداثيين الآخرين الذي لجؤوا إلى تقديم مجموعة من الذرائع تمكنهم من التوصل من التراث النقدي الماضوي قديمه وحتى حديثه، كون كل تلك الجهود لم تسفر على تقديم نظرية نقدية واضحة المعالم. ومن ثمة تحول التواصل مع المدارس والمناهج الغربية - بالشكل الذي قدم - إلى حتمية لا فكاك منها، بالرغم من أن هذه المغامرة الأحادية الجانب لم تسفر إلا عن اغتراب نقدي، نقل إلينا كحرب الغث قبل السمين.

و مثل هذه المغامرة النقدية لا تستجيب لأي معطى موضوعي أو واقعي، لأن الغرب في حد ذاته لم يصنع حدثاته من فراغ وإنما استند في ذلك إلى حوار جدلي أسسه على أقدام الماضي وموروثه الثقافي: "فالحوار وحده جعل الغرب يتحرر من إيسار التأثير الموروث والتقليد الأعمى، ويصوغ نظرياته النقدية في إطار أفكاره ومذاهبه وطبيعته أدبه. ومن ثمة انتقلت عندهم لتغدو منهاجا للتفكير النقدي والفكري"^{iv}.

و الواقع أنه مهما كان نضج النظرية الغربية فلا يمكن نقلها بحذافيرها دون تصفية ودمج مع التراث النقدي العربي في سبيل تأصيل المصطلح وتأصيل الإجراء، بما يتلاءم مع سياق النظرية اللغوية العربية وحتى الجمالية العربية. علما أن جميع المناهج التي انبثقت عن الغرب كان لها مضانها الفلسفية، هذا رغم ادعاء البعض منها العلمية والتجرد من أية مرجعية إيديولوجية كما هو الحال مع المنهج البنوي.

تتضح عند هذه الحدود سلبية التواصل مع الغير انطلاقا من كون نقدنا المعاصر انكب بنهم شديد على التلقي ولم يكن لديه شيء ينتجه بالمقابل، وفشل حتى في إعادة إنتاج المنجز العربي. وفي حقيقة الأمر أن عملية كهذه كانت تتطلب عملا ضخما على المستوى الفردي والمؤسساتي لم تكن مهئين لها.

و تظل لذلك علاقة التبعية الحضارية هي المهيمنة على الفكر العربي المعاصر، رغم المحاولات التي تصدر من هنا وهناك، والتي تحاول الخروج من هذه الخانة إلى عوالم تبدو فيها الذات فاعلة لا مجرد متلقية لفعل.

لكن الوجه الأعم للواجهة النقدية العربية، وجه يتشكل من خلال استسلامه لمنجز الآخر، فلا يريد أو لا يقدر على التواصل معه إلا من باب الترجمة أو

النقل. هذا النقل الذي قد يتخذ مسارات متشابكة قد تؤدي بعض إجراءاته إلى التعمية والتضليل من منطلق العجز حتى على النقل العلمي الأمين.

و لما كان دأب التواصل السلبي الذي نهجه في الغالب الحداثيون وما بعد الحداثيين العرب يقوم على النقل دون التفكير في الإنتاج أو إعادة الإنتاج وفق رؤية تقيم جدلا خصباً مع التراث وكذا النظرية النقدية الغربية، فإن مفهوم الاتباع خيم على الساحة النقدية، وبالتالي هيمن النسق الغربي نظرية ومنهجاً، وغيب الفعل الذاتي إلى الحد الذي أدى إلى ما يمكن نعتة بالاعتراب النقدي.

و من الواضح أن ردود الفعل قد ميزت توجهات كثير من النقاد العرب. وبداعي إبعاد التهمة، تهمة الاتصال من التراث، ثم الانكباب عليه من أجل استخراج مدخراته وسكبها ثانية في المنجز الغربي. لكن شدة الحماسة لهذا التوجه قد أوقعت بدورها في الخلط نتيجة سوء التفسير أو المبالغة في التأويل وقسره حتى يتواءم عنوة مع أحدث النظريات التي طلع بها علينا هذا العصر.

و يمكن على ضوء ما سبق استقراء توجهات أربع يمكن اعتبارها تواصلًا سلبيًا مع التراث وبالمقابل الحداثة الغربية في مجال النقد الأدبي. فالتوجه الأول يؤكد على أن التحديث لا يتم إلا بالقطيعة مع الماضي، وهذا التوجه أقل ما يقال عليه أنه توجه استلابي، يريد أن يتواصل تواصلًا اغترابيًا مع الحداثة الغربية فيخفف على مختلف المستويات. أما التوجه الثاني فهو الذي يريد أن يتواصل مع التراث من موقف التكرار وعدم الانفتاح على أي منجز غربي ويؤدي به ذلك إلى الانزواء والتقوقع وإلى نوع من السلفية النقدية. أما التوجه الثالث، فهو توجه يفتح على كل من المنجز النقدي العربي والغربي، ولكن من منظور تعميم المنجز الغربي وإضفاء الشرعية المطلقة عليه. يبقى التوجه الرابع، الذي يفتح على المنجزين لكن من منظور التنبيه إلى ريادة التراث النقدي، وكان محور الاشتغال الارتداد للماضي للبحث عن شرعيته لا تأسيس نظرية نقدية عربية معاصرة تنطلق من التواصل المنفتح وترتكز إلى القوة الذاتية ليكون بإمكانها الإسهام الفعال وإنتاج المنهج الكفيل بالإجابة على خصوصيات النص العربي.

و انطلاقاً من هذه التوجهات تتطبع ممارسة الحداثيين، حتى ليغدو من باب المفارقة أن نجد حداثياً مثل "كمال أبو ديب" يروج للقطيعة، في الوقت الذي يفتح على عبد القاهر الجرجاني. والمسألة في هذا الباب تتضح أبعادها كون القراءة في هذه الحدود ترتكز إلى التراث أو عينات منه لإضفاء الشرعية على المنهج المعاصر.

و في الواقع أن كل ممارسات التواصل مع النظرية الغربية والمنهج الغربي، بدون أية مرجعية تأصيلية وبدون أي حس نقدي قد انعكس سلبيًا حتى على مستوى التطبيق.

و بدعوى علمية النقد الأدبي وهو ادعاء في جانب منه يظل باطلاً مورست على النص مختلف المواضع التي تسعى إلى تأكيد هذه العلمية، وكما يقول محمد مفتاح: "إن الدراسات اللسانية الموضوعية لا تهتم كثيراً بالوقائع النغمية

(التغيم والنبر والإيقاع). والمجاز (الاستعارة والكناية والمجاز المرسل) أي ما يكون روح الخطابة الأدبية والشعرية وأضرابها، ولكنها في نفس الوقت ركزت على المعطيات القابلة للإحصاء والتكميم، وهكذا شاعت المنهجية الإحصائية للأصوات والصيغ الصرفية والمعجم والتركيب والصور قصد دراسة النصوص وتأويلها على أسس علمية^٧.

و لعل هذا التوجه الإحصائي، هو تعبير واضح على حقيقة الانغماس في المنجز الغربي وفي النظرية الغربية، بغض النظر على فشل الإجراء في التعامل مع الخطاب الأدبي، بل وغباء الإجراء الذي لا يمت بصلة إلى شعرية الإبداع، أو أدبية الأدب.

و إذا كان ما اصطللنا على نعته بسلبية التواصل قد أفضى إلى هذه النتائج، فما التصور الذي يمكن تقديمه لجدلانية التواصل؟
ثانيا/ جدلية التواصل:

إن جدلية التواصل تقتضي الانفتاح الواعي على التراث النقدي، وفي ذات الوقت الانفتاح على المنجز الغربي بشرط أن تلعب حلقة الوصل دورها كاملا عن طريق الاستيعاب وإعادة الإنتاج لغرض التوصل في مراحل مقبلة إلى إنتاج وعي نقدي عربي مستقل.

فالتواصل على هذا الأساس، لا يغدو سلفية نقدية باتجاه الماضي ولا اعترابا نقديا باتجاه الآخر. ذلك لأن التراث النقدي ورغم الفتوحات التي حققها لا يمكن له أن يجيب عن كل إشكالات النص العربي المعاصر، بالنظر لما يحتويه أيضا من فراغات وضعت النصوص السردية والحكاية جانبا لتخلص لما هو شعري.

كما أن هذا التواصل لا يجب أن يشد الرحال باتجاه المنجز الغربي بداعي الانبهار أو بداعي عقائدي أو أيديولوجي، أو بأي داع آخر سوى الداعي المعرفي. خلاصة الأمر أن أي تواصل أحادي الجانب لن يكون مصيره إلا الإخفاق. وأن أي تواصل مع مرجعيات فارغة لن يحصد منه إلا الهشيم، ومن هذه الزاوية لا يمكن أن يكون تراثنا النقدي مرجعا فارغا، بل هو مرجع يعج بالنظريات النقدية الرائدة وقد قدم فكرا لغويا ونقديا حقق سبق في كثير من المجالات.

و يبدو أن هناك تواصلا مؤقتا بشكل من الأشكال يقتضي من النقد العربي المعاصر كمرحلة أولى حسن الاستيعاب، استيعاب التراث واستيعاب الحداثة الغربية. مع العلم أن مرحلة النقل والترجمة تسبق دائما مرحلة الإبداع، وأن نجاح المرحلة الثانية هو بالأساس رهن النجاح في المرحلة الأولى. ومع ذلك فهناك راهنيات نقدية عربية لا يزال يقودها تياران: تيار قرر التواصل مع المنجز الغربي مستندا إلى الجاهزية والرواج، وتيار هو أعمق شكلا ومضمونا تشبث بالقيم النقدية العربية مع انفتاحه على الحداثة الغربية.

و في حدود الرؤية المتطرفة بأي اتجاه، وخاصة باتجاه التواصل مع المركزية الغربية كفكر جاهز ونظرية جاهزة، يحلو لبعض الحداثيين كأدونيس

مثلاً، أن يسائل التراث ويبحث عن الحلقات المفقودة فيه، لكن في المقابل قد لا يقدم أية مساهمة للحدثة الغربية وما أسفرت عنه من نظريات ومناهج نقدية، ومن منظوره: "فأصل الثقافة العربية لن يحمل في ذاته حيوية التجاوز إلا إذا تخلص من المبنى القديم الاتباعي، وبواسطة آلة من داخل التراث نفسه، وفي هذا الهدم يجب التأكيد على أن الحقيقة ليست في الذهن بل في التجربة"^{vi}.

و إذا كان هناك من تفسير لهذا التوجه الذي يحاول أدونيس ترسيخه، فهو طرح واضح لفكرة التجاوز؛ تجاوز التراث، ولكن عن طريق هدمه من الداخل. وبداعي تفكيك منظومة التواصل معه تم تقديم مبرر ما هو إلا إثبات لتجاوز آخر، كون الحقيقة تتبع من التجربة ولا تتبثق من الذهن. ومن البديهي - رداً على هذا الزعم - أن الحقيقة مؤداها جدل قائم بين الذهن والتجربة، فالتجربة النقدية على مستوى الواقع لا يمكن أن تنطلق من فراغ، وإنما هي نتاج لسلسلة من التراكمات التي ينجزها الماضي ويلعب الذهن دوراً فاعلاً في استرجاعها وبلورتها.

إن جدلية التواصل ترفض إذن، مثل هذا التوجه الأحادي الجانب، باتجاه الحاضر أو باتجاه الغرب. إن الراهنية النقدية لابد أن ترتكز إلى ماضٍ يمدّها ومستقبل يوجه طموحاتها. لذلك تغدو أية محاولة لاغتيال الذاكرة ضرب من المستحيل، وأية محاولة لتفكيك التراث النقدي ضرب من الوهم "الديريدي".

إن جدلية التواصل في حدود راهنية الوعي النقدي لابد أن تقبل الحدثة الغربية في الحدود الممكنة، في الوقت الذي تنشب فيه بالتراث في الحدود الممكنة أيضاً. بمعنى أن كلا من الحدين قابل للمكاشفة، بحيث يمكن إعادة صياغته في ضوء مقتضيات الراهن النقدي العربي.

بهذا المعنى تلغي جدلية التواصل التي نتحدث عنها النقل الحرفي، خاصة عن المنجز الغربي، فقد ارتبط هذا المنجز بخصوصيات واقعه، واقع التاريخي، وواقعه المعرفي، وواقعه الوجداني، وواقعه الأدبي. وفي مقابل ذلك ارتبط النقد العربي المعاصر بواقع مغاير تحرك من خلاله على أرضية هشة؛ حيث حلقة التواصل مع تراثه النقدي قد ضاعت كثير من أبعادها عبر فجوة زمنية من الانقطاع دامت قروناً، وحيث حاضره لا تحكمه أية رؤية فكرية أو فلسفية أو أيديولوجية منسجمة. وهكذا وجد المنجز النقدي العربي المعاصر ذاته ممزقاً بين الانكفاء على الذات أو الارتقاء بين أحضان الآخر. ولعل من أشكال الانكفاء على الذات، العودة الهروبية للتراث بعيداً عن إشكالات النظرية النقدية المعاصرة، أو ادعاء بعض النقاد امتلاك التجربة النقدية التي مكنتهم من تجاوز المنجز النقدي العربي والغربي، وفي هذا السياق يعلن كمال أبو ديب بأنه توصل إلى مرحلة مكنته من تجاوز ما أنجزته المناهج الغربية الحديثة حيث يقول: "وصلت لمرحلة تجاوزت بدرجات كثيرة جداً ما أنجزه الفرنسيون أو ما أنجزه الدارسون الأوروبيون. قد يكون الإنجاز الرئيسي لهذا النمط من العمل هو التركيز المطلق على التجربة الإنسانية، على الرؤية الإنسانية في النهاية"^{vii}.

تفرض جدلية التواصل بهذا المعنى الرؤية الانكفائية والأحادية، وفي المقابل ترفض المسارعة إلى تلقف المنهج الغربي والنظرية الغربية. ذلك لأنها جدلية تركز دائما إلى حلقة التواصل التي تمتلك مصفاتها القادرة على عملية الفرز والتثبيت قبل الانسياق خلف أية مغامرة جديدة. فالنقد الغربي - لما بعد الحداثة - يسعى إلى التفكير والإلغاء وإفقاد الكون والنص أي معنى، فيسقط في فراغ سحيق. ولا يمكن لنقدنا أن يتجاوب معه بهذه الكيفية إلا إذا قرر امتطاء صهوة الاغتراب النقدي والتحلل الفكري والمعرفي، وجارى رؤية الحداثيين الغربيين. ونموذجهم رولان بارث الذي يرى أن الأدب: "من خلال رفضه تعيين معنى نهائي للنص (و العالم كنص) يحرر ما يمكن تسميته بالنشاط المعادي لللاهوت، نشاط ثوري حق؛ إذ أن رفض تثبيت المعنى، هو في النهاية، رفض للثالوث المقدس: العقل، العلم، القانون^{viii}".

فمثل هذا الطرح - وإن تعود البعض عليه، بل وحاولوا مجاراته - قد يقوض فيما إذا انتهج كل معالم هويتنا العقائدية وطموحاتنا العلمية، هذا بالإضافة إلى إدخال عموم نقدنا المعاصر ضمن خانة العبث النقدي الذي لا يبحث عن أي معنى للعالم وللنص، بقدر ما يسعى إلى تجفيفهما من أي معنى.

و مع ذلك ورغم خطورة المنهج التفكيكي ومرجعياته الفلسفية تلغفه البعض نظرية وتطبيقا، واعتقدوا أنه قادر على أن يجيب على الأسئلة العسيرة. وقادر على أن يطفر بالنقد العربي من مرحلة التجاوز إلى تجاوز المتجاوز. ومن الحداثة إلى ما بعد الحداثة. ويزداد الأمر غرابة عندما نجد أحيانا من تبنى مثل هذا المنهج نقادا ظلت صلتهم بالتراث وثيقة، ولم ينهجوا نهج من نادوا بالقطيع مع الماضي.

في هذه الحدود يفقد التواصل حلقته داخل زخم منهجي غربي يطلع على النقد العربي كل مرة، فيعتقد البعض أنه ظفر بضالته، دون تمحيص وروية.

إن جدلية التواصل تقتضي من النقد المعاصر أن يظل مفتحا على التراث النقدي، وبقدر هذا الانفتاح تتحقق كينونته وقدرته على التفاعل، وحتى قدرته على الإنتاج. ولا يمكن لذلك حتى من الناحية العملية التكرار للخصوصية في مستوياتها اللغوية والبلاغية، ومن ثمة النقدية. فإذا أمكن التسليم بأن القوالب قد تكون عالمية في مجالات كثيرة، ومنها مجال الرواية والدراما وحتى الشعر، فلا يمكن التسليم بالمقابل بأن النقد عالمي وفق هذا القياس، لأن العملية النقدية لديها مرجعياتها بالضرورة، وهي تستند إلى لغة مختلفة ونظرية بلاغية مختلفة أيضا.

و عموما فجدلية التواصل يمكن وضع تصور لها ضمن أطرافها المتعددة، باعتبار أن العقل النقدي العربي كما يقول صالح هويدي: "يقف اليوم على مساحة من الثراء المعرفي والتنوع الجمالي فيما قدمه الغرب من مناهج نقدية متنوعة واتجاهات خصبة، يمكن لنا الدخول معها بعلاقة جدلية تتمثل ما فيها من منطلقات جادة وهضم معطياتها ووعي أسبابها وإدراك سياقاتها الثقافية ومنطلقاتها المعرفية، مستنديين في ذلك إلى عقل نقدي يستحضر مختلف معطيات المنجز الحضاري

الإيجابية للأمة. وينطلق من همومنا الحضارية المعاصرة وتميز خطابنا الأدبي ليخلص إلى تأسيس رؤية معبرة عن هذا الفهم الخاص للذات الحضارية^{ix}.
غير أن هذا الطموح النقدي المعرفي المنتج لا يزال لم يتحقق لحد الآن ولن يتحقق إلا في إطار مشروع حضاري متكامل. فالنقد ليس كونا معزولا عن بقية الأكوان الأخرى، لذا تبقى الصورة الحالية لنقدنا العربي تعاني من سلسلة من الانفصامات باتجاه الماضي أو بالأحرى باتجاه تراثنا النقدي العربي، وباتجاه المنجز الغربي باعتبار أن الجهود التي تبذل جهود غير منتظمة، وفي أحسن الحالات ترتكن إلى تبعية شاملة هُشمت الهوية النقدية العربية.

الهوامش

- i .صالح هويدي: النقد الأدبي الحديث - قضاياها ومناهجها، منشورات السابع أفريل، ليبيا، ط1، 1988، ص 26.
- ii . عبد السلام شقور: أوليات النقد الأدبي بالمغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجدة، المغرب، ط1، 1985، ص 25.
- iii . جاك ديريدا (و مجموعة من الكتاب): الحداثة وانتقاداتها، ترجمة محمد سبيلا/ و/ عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2006، ص 10.
- iv . غالي شكري: برج بابل، دار الرئيس، لندن، ط1، 1989، ص 16.
- v . محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1992، ط3، ص 167.
- vi . جابر عصفور: قراءة في التراث النقدي، دار الصباح، ط1، ص 37-38.
- vii .كمال أبو ديب: الرؤى المقنعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986، ص 12.
- viii . نقلا عن: عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، عالم المعرفة (يصدرها: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، الكويت، 1990، ص 54.
- ix . صالح هويدي: مرجع سابق، ص 26.